حركية الدّم بين الطب والفلسفة من خلال اختلاف العروق والسلالات

د.سليم سهلي، جامعة العربي التبسي – تبسة- الجزائر

د.فاطمة بوعشة. جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان – الجزائر

ملخص: لقد تمّ تصنيف الجماعات البشرية قديما إلى قبائل وعشائر وبطون وأفخاذ انطلاقاً من الرّابطة الدّموية. ولعلّ ما أنتجه الفلاسفة من تصوّرات وتخيّلات حول هذه المسألة تُؤكّد هذا التّصنيف، فقد أكّد أفلاطون في محاورة "المأدبة" في "الأسطورة الأندروجينية" أن الكائن البشري يجمع في أصله الخلويّ مبدأ الذكورة والأنوثة معاً، وهذا ما أكده علم الأجنة في زماننا باعتبار النشأة الأولى للإنسان بما هو خليّة واحدة تجمع ملامح الأنوثة والذكورة، ثم في انشطارها يتحدد الجنس إمّا ذكراً أو أُنثى نهائيّا. كما أرجع البعض تصنيف هذا التمييز إلى ذاكرة جماعية مجهولة الهوية.

لكنّ ما يبعث على القلق ما حدث من محاولات كثيرة لتسخير الدّم لخدمة أغراض وأهداف أداتيّة مصلحيّة وإيديولوجية في العمق. خاصّة وأن امتزاج الدّماء البشرية مع بعضها البعض عبر آلاف السنين أكّد عجز البعض عن إثبات نقاوة دمه وبالتّالي عجزه عن تأكيد تمايزه العرقي السُّلالي بدّقة.

مما أثار حول "الدم كطوطم" إشكالية العلاقة بينه وبين الإحالة النسبيّة أو ما يُسَمّى ب"النسابة" فطُرحت قضية **ما هي أصول الإنسان الأولى وما هي طبيعة الدّم في هذا التّصوّر المزدوج بين الطبّي والفلسفي؟**

الكلمات المفتاحية: الطب، الفلسفة، الدم، العرق، السلالة.

The kinetics of blood between medicine and philosophy through the different races and strains

Abstract: Human groups have been categorized into tribes, clans, sub-families, and sub-groups, based on the blood relationship. Perhaps the perceptions and fantasies produced by philosophers about this issue confirm this classification. Plato emphasized in the banquet dialogue on the androgenic myth that the human being combines in its cellular origin the principle of masculinity and femininity together, and this was confirmed by embryology in our time considering the first formation of man as a cell that combines The features of femininity and masculinity,

then in its fission the sex is determined, either male or female at all. He also attributed this distinction to an unknown collective memory identity. But what is worrisome is what happened There is a lot to harness blood to serve the purposes and objectives of the instrumental interest and ideological in depth. Especially since the mixing of human blood with each other over thousands of years confirmed the inability of some to prove the purity of their blood and thus their inability to accurately confirm the differentiation of their ancestral race. What raised about the totem blood the problem of the relationship between it and the relative referral or the so-called genealogy, so the issue of what are the first human origins was raised? What is the nature of blood in this double perception between medical and philosophical? Human groups have been categorized into tribes, clans, sub-families, and sub-groups, based on the blood relationship. Perhaps the perceptions and fantasies produced by philosophers about this issue confirm this classification. Plato emphasized in the banquet dialogue on the androgenic myth that the human being combines in its cellular origin the principle of masculinity and femininity together, and this was confirmed by embryology in our time considering the first formation of man as a cell that combines The features of femininity and masculinity, then in its fission the sex is determined, either male or female at all. He also attributed this distinction to an unknown collective memory identity. But what is worrisome is what happened There is a lot to harness blood to serve the purposes and objectives of the instrumental interest and ideological in depth. Especially since the mixing of human blood with each other over thousands of years confirmed the inability of some to prove the purity of their blood and thus their inability to accurately confirm the differentiation of their ancestral race. What raised about the totem blood the problem of the relationship between it and the relative referral or the so-called genealogy, so the issue of what are the first human origins was raised? What is the nature of blood in this double perception between medical and philosophical?.

Keywords: medicine, philosophy, blood, race, ancestry.

مقدمة:

حين انطلق **جان جاك روسو** فيلسوف التّعاقد الفرنسي، من فرضيّة الخيريّة أو الطّيبة الطّبيعيّة الفطريّة لدى البشر فإنّه أراد من ذلك تبرير ضرورة وجود سلطة أو سلطان ينظّم علاقات الناس ويحافظ على بعدهم الخيري وعلى حريّتهم التعاقدية بتقليص أكثر ما يمكن من الوازع العدواني الذي نشأ مع وجودهم داخل حالة مدنيّة كان التعاقد فيها ضروريّا. أما فيلسوف التعاقد الإنجليزي توماس **هوبز** فقد انطلق على العكس من ذلك من فرضيّة "الإنسان ذئب لأخيه الإنسان" ولا يمكن له أن يحافظ على بقائه وينجو من حرب الكلّ ضد الكلّ إلاّ بتعاقد يمنح فيه الرعايا لهذا "التنّين الملك" كلّ ما لهم من حقوق لهذا الرّجل في مقابل أن يُقلّص بينهم التّناحر ويُنجّيهم من الفناء التّام إذا ما تواصل الصّراع والصّدام بينهم بلا هوادة. وما يمكن أن نلاحظه من هذين المثالين من تاريخ فلسفة التّعاقد أنّ الإنسان سواء أكان خيرا أو شريرا لا يمكنه العيش خارج منظومة الصّراع والتّنافس والتّفاضل والتمايز...الخ، وكأنّه منذ أن رسم بصماته الحضاريّة على الأرض وهو في صراع متواصل ضدّ القوى الطبيعيّة الغاشمة، من أجل تحقيق البقاء أولا وتوفير ضرورات العيش وكان ذلك داخل النّظام القبلي البدائي، لكن حالما توسّعت الرقعة الأرضية وتكاثر السّكان واحتوت الأرض على مجموعات كثيرة من الأسر والقبائل أُضِيف إلى هذا الصِّراع مع القوى الطبيعيّة من أجل العيش صراعا آخر تمثّل في التّناحر بين البشر داخل رقعة أرضية واحدة وضمن مجتمع سكاني واحد ليس من أجل العيش هذه المرّة، بل من أجل النفوذ وحب السيطرة فالإنسان حسب هوبز مولع بحب الهيمنة والتغلّب على الآخر.

ولعلّ هذا التواجد المجتمعي الذي ميّز بدايات تاريخ المجتمعات الإنسانيّة هي التي تناولها علماء الأنثروبولوجيا بالدرس لأنّها المؤشّر الأول لأشكال الصراعات الأخرى المتقدّمة في الزمن والمتنوعة. وأول ما لاحظوا ظهور هذا الصّراع السُّلالي العِرقي الذي كان في أصله قبليّ بامتياز، إذ ليس لهذه القبائل المتناثرة والمتنوّعة سوى عنصر الدّم الذي يحدِّد انتماء الأفراد لها ويطبع هويتهم بها، ألم تُحدَّد عند القبائل العربيّة الهويّة بالانتماء إلى هذه القبيلة أو تلك. وكأن في هذا الانتماء شروط ثابتة يتوارثها الأفراد ويتناقلونها عبر ومن خلال الشرايين الدموية وغيرها من الأعضاء، وما تُنتجه من إفرازات تُحدّد في الأخير صفات وملامح فيزيونوميّة وفيزيولوجية وطباع ...الخ تُشَكِّل الشخصيّة وتميّزها.فكان لا بد من المحافظة عليها بصرامة الانغلاق داخل منظومة تحدّد شروط التزاوج للحرص على عدم التفريط في الخصوصيّة الدموية التي تميز هذه القبيلة عن الأخرى.

لذلك سنولي اهتمامنا أولا إلى هذا النوع من التمايز العرقي أو السلالي وما تُحدثه حركيّة الدم داخل الجسم من حالات لقاح بين زوجين من قبيلة واحدة يُعتقد أنه ينتج عنها ملامح وخصوصيّات هذا النوع البشري وتميّزه عن سلالة أخرى. وسنعتمد في هذا السياق على بعض السّجلات الطبيّة المتعارف عليها وكذلك ما كان يُتَصَوّر أنها علمية مع مرتكزات ذات منحى فلسفي ميثولوجي، لكي نؤكّد في الأخير مدى محدوديّة هذا التّصور العرقي والتقليدي الذي غلبت عليه في التّحديد والتّقييم الخلفيات الدينيّة والأخلاقيّة والأيديولوجية.

وسنضع لهذا الجزء من التحليل عنوان، نُضم التصنيف العرقي السُّلالي:

لكن لا يستوفي البحث عمق إشكالية السّلالات والتمييز العرقي الدّموي داخل قطبيّ الفلسفة والطّب بين البشر إلاّ إذا ما نظرنا إلى هذه الحركيّة الدمويّة داخل حركيّة أشمل تحكمها الدّورة الدّمويّة الاقتصاديّة والاجتماعية والحضارية والسّياسيّة التي ولّدت لنا صراعات أعنف داخل منظومة أكثر تعقيدا وظّفت لها العلوم البيولوجية الطبيّة وغيرها والإيديولوجيات السياسيّة، كاشفة بذلك مظاهر ومخاطر النّزعات العنصريّة والاستعماريّة التي لا يحرّكها في الأخير إلا المصالح و السيادة والغلبة، الأمر الذي يدعونا بإلحاح إلى ضرورة مراجعة التصنيفات البشرية بالاعتماد على مقياس المفاضلة والتميّز الجنسي والتفوق الحضاري والغلبة الاقتصادية والهيمنة السياسية.

1- نظم التّصنيف العرقي السّلالي:

يُطلق لفظ الجنس على أحد شقّي الذكورة والأنوثة أو ما يرتبط بهما من معانٍ، وعلى مرتبة تصنيفية أعلى من النّوع دون الجنس بما هو هذا الكلّ الذي يضم مناطق أو مكونات...

كما ينحدر جميع البشر من فصيلة واحدة أو من نوع واحد وهو النوع الإنساني أو الكائن الإنساني الذي منذ آلاف السنين تمكّن من أن يتميّز عن غيره من الكائنات الأخرى بما صنعه لنفسه من خلال صراعه مع محيطه، فالبشر جميعهم ينحدرون من أصل واحد لكن لا تتضارب هذه الوحدة مع ما يوجد بين الناس من تنوع واختلاف بدأً من الخصائص الجسمانيّة والفيزيولوجيّة والفيزيونوميّة "فنحن جميعاً نلتقي في أصل مشترك وهذا يعني أنّ جميع البشر المتواجدين على الأرض ينتمون إلى أصل واحد ومع ذلك فلسنا جميعاً متشابهين، فأجسامُنا مختلفة الأحجام والهيئات وجلودنا متباينة الألوان وكذلك تختلف عيوننا لوناً وشكلاً كما أنّ شفاهنا وأنوفنا ذات أشكال متنوّعة وتتباين شعورنا في لونها وملمسها" (الموسوعة العربية العالمية الأولى، د.س، ص 225).

فما هو أصل هذا التنوّع رغم وحدة الجنس البشري؟

1.يحدث الخلط أحياناً بين المفهوم الإحيائي للجنس وفكرة العرقية أو القومية (الجنسية)، فالناس يعتبرون أنفسهم أعضاء في مجموعات عرقية أو قومية معيّنة بناءًا على خصائص جغرافية أو حضارية أو دينية معينة، ومع ذلك لا تقوم هذه التعريفات على فروق جسمانية، فالناس مثلاً يتحدّثون خطأ في بعض الأحيان عن الجنس العربي أو الجنس الألماني أو الجنس الأيرلندي أو الجنس اليهودي، بيد أنّ هذه الشعارات أو هذه القوالب لا تشير إلى أوصاف عرقية أو قومية وليس لها أدنى علاقة بالمفهوم الإحيائي للجنس.
ويبدو التقييم التفاضلي بين المجموعات البشرية ثم بين المجتمعات والشعوب قديما قدم تاريخ الإنسان، فمنذ وضع الإنسان بصماته الثقافية ثمّ الحضارية لاحقا، وهو يسعى إلى التفوّق على مجموعات أخرى ولنا في ذلك أوَّلَ مثال صريح لهذا التمييز الاثني العرقي والحضاري حين اعتبر أرسطو أن مدينة أثينا التي سميت بمدينة "اللوغوس أو العقل" هي الشّمس التي تُشعّ على جميع المدن الأخرى وهي إنارة جميع الشعوب الأخرى في ذلك الوقت لما تتميّز به من رقي

فكري وفلسفي، ولرقيّ السلالة الإغريقية التي هي أرقى السُّلالات وأنقاها فكرا وروحا، وقد أكّد هذا التّمايز الفلاسفة اليونانيون خاصّة منهم أفلاطون حين ميّز بين الأسياد والعبيد على أساس العرق الدموي فجذور العبوديّة عنده طبيعيّة وراثيّة ومرتبطة بالدم، وكذلك بالنسبة لطبقة الأسياد فهي بالفطرة الطبيعيّة وبالتناسل الدمويّة تتَوارث هذه الصفة، والأدهى من ذلك أنّه برّر وجود العبوديّة لا فقط "بيولوجيّا" بل أيضا أعطاها شرعية لاهوتيّة فاعتبر العبد هبة أو بلغتنا هديّة إلهية منحها الإله للسيد لخدمته حتى يتفرّغ هذا الأخير إلى التأمل في واجب الوجود وعلّة العلل وصورة الصّور. لذلك كان الاعتقاد السائد والقناعة المطلقة أنّ العبد يولد عبدا والسيد يولد سيدا منذ بداية الخلق، ولا يخفى ما تُخفيه هذه "المعتقدات الدّمويّة العرقيّة " التي دُعّمت أيدلوجيا ودينيّا خاصّة في المناخ الفلسفي اليوناني التقليدي وكذلك في الإمبراطورية الرومانيّة من تمييز عنصريّ وثقافيّ وحضاريّ برر بوضوح ظاهرة المركزيّة الإثنيّة لهذه المجتمعات على من هم دونهم فصيلة دموية وشكل ولون وعادات...الخ في مقابل ما تتمتّع به هذه الشعوب من تمييز عرقي وإلهي وحضاري...الخ. فلا نستغرب عندها حين نجد الرومان القدامى ينظرون إلى القبائل الجرمانية على أنّهم جنس من الهمج ولا يكادون يعدون من البشر، وما عاناه السود الأفارقة من استرقاق واستعباد لا لشيء إلّ لاعتقاد البيض أن الأسود من فصيلة الدم الأزرق في مقابل دم البيض الأحمر، وأن الأسود لذلك لا عقل له ولا يقدر على التفكير بل له قدرة فائقة على العمل الجسدي لقوة وضخامة بنيته البدنيّة، وكذا ادّعى الأوربيون الذين استقرّوا في أمريكا تفوّقهم على الهنود الأمريكيين.

كما يمكن في هذا السياق تقديم مثال "هتلر"حين أجبر علماء ألمانيا في ذلك الوقت على أن يقوموا "ببحوث علميّة" بعيدة كلّ البعد عن الحقيقة الموضوعيّة وأجبرهم على أن يبَيّنوا أن الجنس الآري هو بالوراثة الجينيّة الدمويّة الأرقى، وذلك حتى يدعّم نظريّة الإنسان الأعلى حسب الفلسفة النيتشوية في مقابل الجنس الآري "اليهودي والعربي" الذي يعطل مسيرة قافلة التطور الحضاري فدعا إلى ضرورة إزالتهم حتى يتوسع الجنس الآري الألماني ويعمّ الأرض ويسود العالم برقيّه الحضاري.فطهرت الشعارات في الثلاثينيات من القرن 20 التي تنادي بتفوّق النازيّة الألمانيّة المنتمية إلى هذا الجنس الآري الرفيع فاعتُبر اليهود وغيرهم من الأقوام غير الآريين أدنى منهم مرتبةً (الموسوعة العربية العالمية الأولى، د.س، ص 230) .

صحيح أن ظاهرة الاستعباد والعبودية والرّق والنظرة الدونيّة لبعض أصناف من البشر هي قديمة قدم البشر لكن لم يأخذ تفشّي العنصريّة مداه ولم يتخذ أشكال الاستغلال والاستعباد في أعنف حالاتها ولم تُوظف الحروب إلا بدافع الاعتقاد في تفوق حضارات شعوب على شعوب أضعف والاعتقاد في انتساب شعوب لأجناس وأعراق مختلفة فيها الأرقى والأدنى بيولوجيّا "طبيّا" وثقافيّا. لذلك كانت تُرَدّ الطبائع الاجتماعية، الإنسانية إلى سماتها البيولوجية العنصرية وتُقَسّم الأجناس بطريقة تعسّفية إلى أجناس (عليا) و(دنيا) وقد كانت العنصرية النَّظرية الرسمية في ألمانيا النازية واستخدمت لتبرير الحروب العدوانية (مصطفى أحمد حسيبة، 2008، ص 258).

2.يشير مفهوم أو مصطلح الأصالة السّلالية إلى تكوين هويّة الجماعة وإحياء أو استمرار الملامح الثّقافية لشعب يمرّ بتغيير سريع أو جذري، ويمكن أن يستخدم للإشارة إلى نظام عرقي جديد ناتج

عن امتزاج الجماعة مع جماعات أخرى. وتعتبر معايير التّسمية والمقابلة ضرورية لفهم هذه الظاهرة، ويمكن تطبيق هذا المفهوم أيضا على التغلب على بعض الحواجز السّلالية مثل تلك القائمة على أسس سياسية أو اجتماعيّة أو إيكولوجية وهو ما يؤدي إلى تأثير تميّز شعب معين حسب معايير محدّدة (شارلوت سمور سميث، 2009، ص 295).

3.لقد أعطى بعض العلماء للسُّلالات البشرية أسماء لاتينية تدلّ على الأنواع الفرعية.... وقد أعطى "ليناوس" مبتدع هذه الطّريقة في التّسمية العلمية أربع أسماء: Amiricarus أو أمريكي، Europacus أو أوروبي، Asiaticus أو آسيوي، Afer أو إفريقي، ويقصد به الزنجي كما أضاف علماء آخرون مزيداً من الأسماء اللاتينية لكنّهم لم يصنفوا إلا خلطا[1] (كالرتون ستيفن كون، 1975، ص ص 25-26).

ودأب العلماء منذ بداية تدوين التاريخ على تصنيف البشر بطرق مختلفة، وقد تباين عدد الأقسام التي يعتمدها كلّ واحد من هذه النظم، ولقد تأثّر تطوّر نظم تصنيف الأجناس بثلاث نظريات رئيسية: أوّلاً: نظرية الأجناس الثلاثة، ثانياً: نظرية التطوّر وثالثا: نظرية الجنس الجغرافي (الموسوعة العربية العالمية الأولى، د.س، ص 223).

2- نظم التّصنيف العرقي:

1: نظرية الأجناس الثلاثة:

كانت المعلومات المحدودة عن سكان العالم في ذلك الزمان تُوحي بوجود ثلاث أجناس من البشر: الأوروبي أو الأبيض، الإفريقي أو الأسود، الآسيوي أو الأصفر... ثم أصبحت هذه المجموعات تُعرف في النهاية بالقوقازية والزنجية والمغولية على التوالي، وقد قضّى العلماء سنين طويلة في محاولة تصنيف جميع العشائر البشرية وفقاً لهذه السّلالات الثلاث أو بعض الصور المحوّرة منها. فكانوا يعتقدون أنّ جميع الناس ينتمون إلى عدد محدود من الأجناس وأنّ خصائص كلّ جنس ثابتة لا تتغيّر، وقد أدّت الحِقبة الرئيسية للكشوف الأوروبية فيما وراء البحار والتي بدأت في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي إلى زيادة الاتصال بأقوام من حضارات شتى فانتهوا إلى حقيقة واضحة في القرن التاسع عشر الميلادي مفادها أنّه ليس من اليسير إلحاق معظم سكان العالم بنظام الأجناس الثلاثة (الموسوعة العربية العالمية الأولى، د.س، ص 273).

2- نظرية التطوّر:

حين اتجه بعض البيولوجيين (علماء الأحياء) إلى تقبّل نظرية التطوّر (النشوء والارتقاء) التي نادى بها العالم الإنجليزي "داروين"، بدأ يتشكّل رأي يقول بإمكان تصنيف البشر أجناساً على أساس خصائص جسمانية ثابتة. ولا يخفى أن نظرية داروين في التطور والنشوء والارتقاء أحدثت في حينها صدمات عظيمة لمعاصريه، لأن الناس في ذاك الوقت مازال اعتقادهم راسخا في الطّرح الدّيني الذي يقول: إنّ الله قد خلق كلّ نوع من الكائنات الحيّة بطريقة مستقلّة عن غيرها. لذلك أثار كتابه "أصل الأنواع" كثير من ردود الفعل لِما احتوى عليه من آراء تُشكك في

العقائد السّماوية، هذا من جانب، ومن جانب آخر قد تسببت هذه النظرية في إحياء حركية هامة توجهت إلى الاعتناء بعلم الأحياء ودراسة مواضيعه من الكائنات الحيّة وأنواعها وشرط تطورها أيكولوجيا وبيولوجيا ومناخيّا.فقد ذكر داروين بأنّ بعض أفراد الأنواع لها سمات طبيعية تساعدها في صراعها من أجل البقاء، وهناك أنواع أخرى تفتقر لمثل هذه الميزات، ولذلك فإنّ احتمال استمرارها في الحياة يصبح أقلّ من الأولى وفي المتوسط فإنّ الكائنات التي لها مميزات مؤهلة للتكيّف تعيش لفترة أطول كما أنها تلد أجيالاً أكثر تطورا من الأخرى إضافةً إلى أنّها تُورث أجيالها القادمة هذه المميزات المواتية. في حين يندثر في آخر المطاف من ليس قادرا على التأقلم الطبيعي من الكائنات الأخرى الأضعف. وهذا ما يجعلنا نستنتج أنّ بعض هذه الكائنات الحية حين تجد ما يُعينها على الاستمرار والتكيف تبقى، وبعضها الآخر يفنى ويزول. وبمثل هذه الكيفية فإنّ أنواعاً مختلفة من الكائنات تظهر وتصبح بالتدرج أنواعاً منفصلة عن غيرها (الموسوعة العربية العالمية العاشرة، د.س، ص 227).

وقد أدرك بعض العلماء أنّه بإمكان الأنواع الحيوانية أن تتغير وتتطور إن وجدت المناخ والشروط الملائمة لذلك وهو ما يفنّد اعتقاد معظم البيولوجيين في أواخر القرن التاسع عشر خصوصاً في المجتمعات الغربية، لأنّ جميع أنواع النبات والحيوان ظلّت ثابتة على حالها من جيل إلى جيل دون تتطور، في حين أنّ الجيولوجيين (أي علماء طبقات الأرض) نتيجة اكتشافهم لحفريات نباتات وحيوانات تختلف عن الأنواع المعاصرة، أصبح لديهم الدليل المبدئي على أنّ الأنواع تتطور ولم تكن ثابتة[2] (الموسوعة العربية العالمية الأولى، د.س، ص 223)، وبطبيعة الحال إن مبدأ الانتخاب الطبيعي الذي أسسّ التطوّر وجوهره قد أعان العلماء الغربيين على فهم كيفية تغيّر الكائنات الحية على مرّ الأجيال الكثيرة. وتزعم هذه الفكرة التي قدّمها عالم التاريخ الطبيعي "تشارلز داروين" في كتابه 'أصل الأنواع' (1852) أنّ عشائر الكائنات الحيّة يمكنها أن تتغير عبر الأجيال المتعاقبة من خلال تكيّفها مع بيئاتها الطبيعية وعندما طُبّق هذا الفهم الجديد لعمليات التطوّر من خلال الانتخاب الطبيعي أظهر أنّ كثيراً من الخصائص التي كان يُفترض أنها ثابتة وكانت تُستخدم في تمييز الأجناس ، إنّما كانت في الواقع تكيّفات وتشكلات تطوّرت على مرّ الزمان استجابة لتحولات البيئية والمناخ والطبيعة، ولقد اتّضح لبعض العلماء أنّ الجماعات المتباعدة تباعداً واسعاً يمكنها أن تكسب خصائص متشابهة حتى وإن لم تتقاسم علاقة سلفية حديثة (الموسوعة العربية العالمية الأولى، د.س، 224).

3- نظرية الجنس الجغرافي:

ابتدع بعض علماء الإنسان في الخمسينيات من القرن العشرين نظاماً جديداً لتصنيف الأجناس وذلك في محاولتهم التوفيق بين نظرية التطوّر والتباين المشاهدة بين العشائر البشرية في العالم الحديث، حيث قسموا البشر أقساماً رئيسية، أسموها أجناساً جغرافية وكانت هذه الأجناس

[1]- السلالات البشرية الحالية، كالرتون ستيفن كون، ترجمة وتقديم: محمد السيد غلاب، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، 1975، ص.25-26.
[2]- الموسوعة العربية العالمية الأولى، ص.223.

مجموعات من العشائر التي تسودها ميزات متشابهة، وقد اعتمد نظام شائع الاستخدام من تلك الأنظمة تسعة أجناس جغرافية: (الموسوعة العربية العالمية الأولى، د.س، ص 224).

1) الأسترالي،
2) الآسيوي؛
3) الإفريقي؛
4) الأوروبي؛
5) البولينزي؛
6) الميلانيزي؛
7) الميكرونيزي؛
8) الهندي؛
9) الهندي الأمريكي.

نجد التصوّر العلمي عن دور المورثات في تركيب الجسد والروح، أصله في الأعمال التي قام بها "غريغور مندل". فقد بيّن هذا الراهب النمساوي منذ حوالي 150 سنة أنّ "الخصائص" التي تُحدّد جسماً ما تضبطها عوامل خفيّة تحدّد إمكانية توريث هذه الخصائص للجسم من خلال قوانين توافقية.

وفي عام 1909 أدخل "ولهلم جوهانس" كلمة 'مورّثة' للإشارة إلى العوامل الموحِّدة التي تكون مسؤولة عن نقل الخصائص ويفرض علم الوراثة عندئذ نفسه كبرنامج بحث يهدف إلى إيضاح "قوانين الدّوام" والاستقرار بين الأجيال (ميشيلا مارزانو، 2012، ص 1644).

اختلف العلماء عبر السنين حول عدد الأجناس التي يُصَنَّف البشر تحتها وحول الأفراد الذين يلحقون بكلّ منها ولهذا السبب انتهى كثير من علماء الإنسان إلى الاعتقاد بأنّ إلحاق أيّة جماعة من البشر بجنس من الأجناس مسألة اعتباطية ولا أساس علميّ لها... وقد ظلّ معظم العلماء أعواماً يعتقدون في وجود أجناس نقية من البشر ظهرت في زمن ما من عصور ما قبل التاريخ وأنّ تلك الأجناس النقيّة قد تكون منعزلة انعزالاً تاماً عن بعضها وأنّ أفراد كلّ جنس منها اتصفوا بخصائص لم توجد في أفراد سائر الأجناس، بيد أنّ معظم علماء الإنسان الطبيعيين الذين اهتموا بإنسان عصور ما قبل التاريخ يشكّكون في وجود أجناس نقيّة في أيّ وقت من الأوقات بل أشاروا أنه من المحتمل أنّ الناس كانوا يتخذون دائماً أزواجهم من عشائرهم أو من خارجها وأنّه بازدياد وسائل الانتقال والتواصل سيرا ازداد اختلاط العشائر البشرية أكثر فأكثر، ولهذه الأسباب يصعب التعريف الإحيائي للجنس وصف العشائر البشرية، ويتجنب معظم علماء الإنسان الآن تصنيف الناس أجناساً(الموسوعة العربية العالمية الأولى، د.س، ص 222).

نظيف إلى كلّ ذلك أن الناس كثيراً ما يسيئون فهم فكرة الجنس (العرق) البشري بل حتّى المصطلح قد أُسِيء استخدامه في بعض الأحيان عن عمد وكثيراً ما خلط الناس أيضا بين المفهوم الإحيائي للجنس واللغة القومية أو الدين. فالفروق الجسدية قد أدّت ببعض الناس إلى الانتهاء إلى نتيجة خاطئة وهي أنّ أفراد الجماعات المختلفة يولدون ولهم تفاوت في درجة الذكاء، والمواهب

والقيم الأخلاقية، وقد اتُخذ الجسد أساساً رئيسياً للتميز في المعاملة، أي معاملة كلّ جماعة للجماعات الأخرى على أنها ذات مستوى أدنى منها.

وما يزال بعض الباحثين يؤكّدون على أنّه بوسعنا الحفاظ على مفهوم العرق بمعنى إدراكي محض لتمييز الأبيض مثلاً أو كما يقال القوقازيين، السود والآسيويين، أو أيضا بمعنى وراثي أكثر لتمييز تجمعات أو تقسيمات بشرية مقترنة بميزات بيولوجية (ميشيلا مارزانو، 2012، ص 1125) .

وقد تُمَثِّل فصائل الدّم أهمية خاصّة في عالم تعيين السُّلالات والأجناس وأهمية مجموعات الدّم، وقد يرجع ذلك إلى شيوع استخدام الدّم في المصطلحات لكلّ الشّعوب كدليل على أصل ذي عراقة أو صناعة، فمثلاً كان هناك اعتقاد بأنّ النُّبلاء والملوك تجري في عروقهم الدماء الزرقاء Sangie Ozul Blue Blood، وأصل هذا الاعتقاد الخاطئ جاء نتيجة التزاوج الدَّاخلي المستمر لبعض عائلات إقليم كاستيليا في إسبانيا، فقد كانت هذه الأسر ذات بشرة بيضاء وعروقها واضحة الزرقة ممّا ميّزها عن بقية سكّان الإقليم سمر البشرة (محمد رياض، 1974، ص 82).

إنّ التمييز بين زمرة دموية وأخرى تشكل خصيصة أخلاقوية دخلت الأديان والأنظمة والقوانين، وباسم نقاوة العرق ودفاعاً عنه ولكي يبقى الدّم النقي محافظاً على نقائه تتم شَرْعَنَة ممارسات تبلغ حدّ الهمجية بل تتجاوزه أحياناً عندما يوضع قانونا معينا، أو يروّج لفكرة أو قتل الآخر سواءً كان فرداً أو جماعة محدودة أو شعباً. كذلك هو فعل أخلاقي يُثاب عليه وأن ذلك يعتبر ممارسة مشروعة هنا وهناك، كل ذلك يعكس قناعة أنّ التفاوت الدمائي موجود قيميا... وإنّ النظرة إلى الدّم كمفهوم أخلاقي، أو كعلاقة لا تقتصر على ما هو كائن ومعيش فقط وإنّما تجاوزت أنطولوجيا وتجذرت في الماورائي(إبراهيم محمود، د.س، ص 152).

وقد خطا أفلاطون خطوة عملاقة في ذاك الوقت حين عرف القلب بوضوح على أنّه النقطة البُؤرية للأوعية الدموية التي تعمل كقنوات اتصال بين المخ والقلب، ومن ثمّ مع كلّ جزء محسن وفي Timaeus70a-b فإنّه يصف القلب على أنّه عقدة الأوردة وينبوع الدّم فهو يقول: «أودعت الآلهة القلب، عقدة الأوردة وينبوع الدّم، الذي يتحرك بقوّة في كلّ أنحاء الأطراف في مكان الدّماغ حتى عندما يثار الانفعال إلى نقطة الغليان» (صلاح صرور، 2002، ص 187).

فالدّم إذن هو أحد عناصر الجسد البشري الذي يتمتع بأكثر من وظيفة، كما يعتبر المرتكز الأساسي للحضارة البشرية. وكمفهوم كيميائي هو: «سائل الحياة يمرّ عبر الجسم البشري... يقوم القلب بضخ الدّم لكلّ خلايا الجسم ويُؤمّن لها الأوكسجين والغذاء وفي نفس الوقت يعود الدم من الخلايا حاملاً ثاني أوكسيد الكربون وفضلات أخرى».

عندما تمتصّ خلايا الدّم الأحمر الأوكسجين فإنّ الدّم يأخذ اللون الأحمر الذي يُميّزه، فالدّم المتسرّب من الأوعية المهترئة خارج الجسم يبدو أحمر ناصعاً بسبب وجود الأوكسجين في الهواء والدّم الذي يحمل الأوكسجين لخلايا الجسم له نفس اللون الأحمر الناصع لكنّه يعود بلون فاتح محمر بعد تحريره من الأوكسجين(الموسوعة العربية العالمية العاشرة، د.س، ص 354).

أظهر تصنيف الفصائل الدّموية أهمية كبيرة في بعض الإجراءات الطبيّة، كذلك مكّنت المعلومات عن الفصائل الدموية المختصين من استعمالها في القانون وعلم الأجناس.

في المجال الطبي، إنّ الاستعمال الرئيسي للفصائل الدموية تحددُ نوعية دم الشخص الذي يدعى المتبرع والذي يمكن نقله للمريض بدون رفض جسمه له أو بدون تفاعلات مهمة(الموسوعة العربية العشرة، د.س، ص 360).

ويوجد ثمانية فصائل مختلفة في الدّم البشري، تتوزع على جميع سكان الكرة الأرضية، ويتم تحديد فصائل الدّم عن طريق وجود أو غياب نوع معين من المستضدّات الغشائية للرمز الدموي الموجودة في الدّم البشري، حيث تلعب هذه المستضدّات دوراً في مناعة الإنسان، ولذلك يجب أن تكون عمليات نقل الدم من شخص لآخر وفقاً لهذه الفصائل حيث في حال تمّ نقل دم من فصيلة معينة إلى شخص آخر يمتلك دماً من فصيلة أخرى فسوف تقوم المستضدات الموجودة في دم المضيف بمهاجمة الدم المنقول وتؤثر فيه تأثيرا سلبيّا. وتنقسم فصائل الدم إلى أربع فصائل رئيسية: (هديل البكري، 2019).

مجموعة A: A وA مجموعة AB: AB وAB

مجموعة B: B وB مجموعة O: O وO

ضمن مقاربة شديدة الصلة بموضوع البحث يسمح لنا تدفق الدّم، وهو يدخل من جسد لجسد ضمن عملية طقوسية بالغة، إذ ثمّة استعداد نفسي لكلّ ما يجري، فالذي يشرب الدّم البشري هو الذي يتعامل مع موضوع من جنسه، وثمّة إسقاط لأكثر من تصوّر، وهو رهان قيمي على ما يجري بالفعل، فالذي يشرب دم غيره، يعتقد بالفعل وفق الفعل الممارس أنّه يخدمه، إذا تعرض لحادث أودى بحياته إنّه يخلده في ذاته ويجعله محفوظاً في عروقه فدمه يجري في عروقه مختلطاً بدمه وبالمقابل إذا كان دم غريب/ مجهول فهو في الحالة هذه يحظى بالاحترام والتقدير رغم مخاصمته، فالذي يشرب دم الغريب حتى ولو كان عدواً إنّما يمنحه قيمة وجودية مساوتية لوجوده من ناحية، ومن ناحية ثانية يُلغيه حتى يقضي عليه كلياً لأنه يشرب دمه ويأكل لحمه كذلك، لذلك لم يكن هناك وجود للجنائز(إبراهيم محمود، د.س، ص- ص 41.52) .

ونتيجة للأهمية الواضحة للدّم والحياة، فإنّه قد صار مرتبطا بالثأر أو توثيق اتفاق أو أخوة، كما أنّه قبليّا هو رمز للعلاقة البيولوجية بين الفرد وأقاربه، كما أنه يرمز أحياناً إلى حل للنِّزاعات بين الأقارب، ولنا في ذلك قول مأثور ومعبر وهو: «الدّم لا يتحول إلى ماء».

وكثيراً ما يرمز إلى الأشخاص المهجَّنين نتيجة زواج من سلالتين أو مجموعتين مختلفتين على أنّهم "نصف دم.... قوقازي على سبيل المثال"، هذه المعتقدات وغيرها تستخدم أيضا في "المخيال الشعبي، للتّأكيد على نقاء مجموعات معينة أو على انتماءات سلالية ضمن جماعات معينة(محمد رياض، 1974، ص 82-84) .

الخاتمة:

لئن انتهى بنا الطرح الميثولوجي والأنطولوجي وبعض من الطروحات الأنتروبولوجية والفلسفيّة إلى أن التّمييز العرقي السّلالي تحكمه عوامل ذات أساس دموي وراثي طبيعي وخاضع بالأساس إلى آليات التّناقل الجيني الذي يُحدّد قبليّا أي قبل الولادة طبيعة وشكل وخاصيّة انتماء الفرد التّابع لنوع معين من البشر وهو ما يسمح له بالإضافة إلى مميزاته الفيزيولوجيّة التي تخصه بأن يتميز أيضا بخصوصيات انتماء تاريخيّة وثقافيّة وحضاريّة، مهما كانت ركائزها وجذورها فهي تمثّل هويّته التي يعتزّ بها. لكن قد تهتز هذه الهويّة حين تتقزّم أمام مشروع المركزيّة الإثنيّة الذي تمحور في هذا البعد التّفاضلي لا فقط بين الأجناس والسّلالات وفصائل الدم بل ذهب أبعد من ذلك فحدّدَ البشر وصنّفهم حسب الانتماء الديني والجنسي والجغرافي واللّون ...إلخ وسلّط عليهم مقياس الهيمنة الاقتصادية كرهان وحيد للتمييز بين الحضارات والشعوب، ضاربا عرض الحائط بمقولة الكونيّة الإنسانية وبالقيم القّصوى والعليا التي من واجبها أن توحّد الأسرة البشريّة داخل منظومة الاختلاف والتنوع. فهل من مراجعة جدّية وجادّة لهذا الغزو الاثني الحضاري والاقتصادي بالأساس ولهذه المركزيّة العلمانيّة والتكنولوجيّة التي تعدّت البعد الثقافي والحضاري لتُحَقق سيادة اقتصاديّة وسياسيّة تقودها البلدان العُظمى باسم العولمة لكي تجعل من العالم قرية صغيرة تتبخّر داخلها ما للشعوب من خصوصيات؟.

قائمة المراجع:

1.أحمد حسيبة مصطفى(2008)، أول معجم شامل للمصطلحات الفلسفية المتداولة في العالم وتعريفاتها، دار أسامة للنشر، عمان.
2.رياض محمد(1974)، الإنسان، دراسة في النوع والحضارة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط2.
3.ستيفن كون كالرتون(1975)، السلالات البشرية الحالية ، ترجمة وتقديم: محمد السيد غلاب، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة.
4.سميث شارلوت سمور(2009)، موسوعة علم الإنسان، المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجية، المركز القومي للترجمة، ط2.
5.صرور صلاح(2002)، الطب في مصادر الإغريق القديمة، مذكرة ماجستير في الدراسات اليونانية والرومانية، الإسكندرية.
6.مارزانو ميشيلا(2012)، معجم الجسد، ترجمة: حبيب نصر الله، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1.
7.محمود إبراهيم(دس)، أقنعة المجتمع الدمائية، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا.
8.الموسوعة العربية العالمية الأولى(دس)، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ط2، الرياض، المملكة العربية السعودية.
9.الموسوعة العربية العالمية العاشرة(دس)، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط10.

10.هديل البكري، فصائل الدم البشري، على الموقع:/http://moodoo3.com